الجزء الأول

من العصر الجاهلي إلى عصور الانحطاط

هذا الجزء ، ألقى فى جامعة دمشق شتاء عام ١٩٦٠ وطبع بالقاهرة عام ١٩٦١ ثم ألقيتُ خلاصته على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية العالية، عام ١٩٦٧، توطئة لمحاضرات الجزء الثانى : قيم جديدة لأدبنا المعاصر .

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

محاولة
ومدخل

obeikandl.com

obeikandl.com

هذه محاولة متواضعة لتحرير الدرس الأدبى من بعض قيم ومقاييس خاطئة ، احتكمت فيه زماناً وسيطرت، ولا تزال تسيطر ، على فهمنا لتراثنا الأدبى ، وتوجه ذوقنا له وإدراكنا لوظيفته فى الحياة ومكانه منها .

وقضيتنا الأولى والكبرى ، هى الفن والحياة . وتجربتنا التاريخية دلّت على ما بينهما من صلة وثيقة حتمية ، فحيثما كانت الحياة قوية زاهرة ، كان الأدب طليعتها وقائدها وصورتها ، وحيثما تخلفت وركدت، كانت محنتها بالأدب تعادل محنته بها .

وعلى أساس هذه الحقيقة ، ارتدْتُ التاريخ الأدبى فى مجاله الدراسى وواقعه التاريخى . فبدا لى أن الأحكام الأدبية والمقاييس النقدية التى خلفها لنا القدامى من مؤرخى الأدب العربى ونقاده تعرضت :

لمؤثرات ذوقية ، قضت بها ظروف عصرهم ، وغلب عليها مزاج مجتمعهم .

ومؤثرات اجتماعية واقتصادية ، من صراع العناصر وصدام المذاهب والطبقات..

ومؤثرات سياسية ، تنازعت فيها السلطانَ قبائلُ وأسر وشعوب؛ وتفاوتت بينها نظم الحكم وأوضاعه .

ومؤثرات عقلية ، طرأ عليها ما طرأ من ثقافات شتى ، وحملت إليها الأجناس والشعوب التى تعربت أو اتصلت بالعرب ، ميراثها الحضارى والفكرى .

كل هذا ، فيما نؤمن ؛ هو الذى وجّه الفن العربى من قديمه إلى اليوم .

وكل هذا ، فيما نعتقد ، هو الذى قرر تلك الأحكام والقيم التى لم تكن سوى أصداء ونتائج ؛ لذلك الواقع المادى المعنوى . .

وقد حدد أولئك القدماء للشعراء منازلهم وأقدارهم ، واختاروا نماذج من الشعر رأوها أجود ما قيل فى بابها . ومرت عصور وأدهار ، وما يزال الشعراء حيث وضعهم الأقدمون ، وما تزال النماذج التى اختاروها ، موضع عنايتنا وتقديرنا واهتمامنا ، وما تزال أحكامهم ومقاييسهم باقية فينا ، نعيدها ونكررها وندور فى نطاقها .

وكأنما قُضِي علينا أن نستعير عقليتهم وأذواقهم ، لنفهم تراثنا ونتذوقه .

ومنذ اثنى عشر قرنًا ، رفض « ابن قتيبة : ٢٧٦ هـ » استعارة ذوق السابقين فقال : « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيلَ من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر بين الاحتقار لتأخره . . ولم يقصر الله العلمَ والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصَّ به قومًا دون قوم ؛ بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثًا فى عصره »[١] .

وفى القرن السادس الهجرى ضج « ابن بسام » فى أقصى المغرب من التقليد والجمود ، واستعارة ذوق بيئة أخرى غير بيئته فقال :

« إلا أن أهل هذا الأفق ، أبوا إلا مبايعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى "قتادة" حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لحَشَوا على هذا صنماً، وتلَوا ذلك كتابًا محكمًا ! وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، وخصَّ أهلَ المشرق بالإحسان ..؟ والإحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور . وعزيز على الفضل أن يُنكسَر ، تقدم به الزمان أو تأخر .ولحى الله قولهم: "الفضل للمتقدم" فكم دفن من إحسان وأخمل من فلان ، ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير ، وذهب أدب غزير »[٢] .

وابن قتيبة وابن بسام ، قد كانا قريبى عهدٍ بالقوم نسبيًّا، أفلسنا أولى منهما بمثل هذا التحرر الفكرى والذوق ؟

وهل ترى يليق بنا أن يجمد ذوقنا عند الموروث من قيم نقدية ، لرجالٍ فصلتنا عنهم قرون ذات عدد ، جَدَّ فيها على ثقافتنا وأذواقنا ما جد ؟

وقدامى النقاد ، عاشوا فى عصور ليست أزهى عصور العربية ، وفى مجتمعات متصدعة مريضة غالبًا ، وقد نجونا نحن من أكثر الأوضاع المريضة، لكن لا تزال

---

(١) الشعر والشعراء ١/٦ ط الحلبى .

(٢) الذخيرة : ١/٢ ، ٣ ط جامعة القاهرة .

رواسب منها تحتكم فى فهمنا لتاريخنا وذوقنا لأدبنا . بل لا تزال دراستنا لأدب العربية الذى هو نبض وجداننا المشترك ومناط وحدتنا الذوقية ، تدور غالباً فى النطاق الذى ورثناه من عصور خلَتْ .

والعربية قد كانت لنا من قديم أكثر مما كانت لغة أخرى للناطقين بها ؛ وذلك بحكم اتصال العربية ، لغة المعجزة الدينية ، بالعقيدة التى نعرف سلطانها على الوجدان ، ومكانها فى الصراع التاريخى المرير ، بين العربية وأعدائها : من شعوبية وتَتر ، وصليبية وصهيونية واستعمار . .

ومستقبلنا بلا شك معركة فكرية ، بعد أن انقضى عهد الاستعمار العسكرى ؛ ولا مفر لنا من خوض هذه المعركة لأن وجودنا الكريم لا يحميه إلا صونُ مقوماته المعنوية والمادية .

وهنا يأخذ الأدب دوره فى نضالنا الجديد ، حارساً لمعنوياتنا . وكما لاذ أسلافنا باستنقاذ تراث العربية الأدبى والفكرى فى صراعهم مع الشعوبية ؛ وكما حموا به العربية ديناً ودولة فى مهب الإعصار التترى والغزو الصليبى ؛ نلوذ به اليوم لحماية وجودنا ، فى مهب تيارات الغزو الفكرى المشحونة بسموم لصوص الحرية وأعداء البشر.

ولن ينهض الأدب بهذا الدور الجليل فى المعركة ؛ ما لم نتخلص من الرواسب التى شوهت تراثنا الأدبى ؛ وما لم ننج فى ذوقنا له من سيطرة الأذواق التى ورثناها من مخلفات عهود الضعف والانحطاط ؛ بل لن تقوم للأدب العربى فينا قائمة ما لم نهدم الأسوار التى عزلت أبناءنا ، وأجيالاً قبلهم ، عن أجمل ما لنا من تراث فنى ؛ ولم نمح الظلال التى حجبت عنهم بهاءه ؛ حين فرضت عليهم نماذج بعينها من الشعر راجت فى ظل الطغيان ؛ وأشخاص بذواتهم ، من الشعراء والكتاب ، يدينون بشهرتهم وذيوع صيتهم لتعلقهم بركاب حكامٍ كانوا فى عزلة عن الشعوب ؛ وإلى تمرغهم فوق « بلاط » ذوى السلطة ، مَنْ كانوا ، ولو كان هذا البلاط يكتم أنفاس الرعايا المحكومين ويهدر ما لهم من حقوق وحرمات .

وإلى اليوم ، ما نزال نفرض تلك النماذج وأولئك الشعراء والكتاب على أبنائنا ، ثم نزيد الطين بلة فنجعلهم يتذوقون النصوص المختارة بذوق تقليدى موروث؛

ويزنون الشعراء والكتاب بموازين انحدرت إلينا من نقاد عاشوا تحت ضغط الحكم الاستبدادى ، وتنفسوا فى جوه .

* * *

وهذه المحاولة تكشف عن أمثلة من انحراف الفهم لتراثنا الأدبى ؛ وضلال المقاييس فى ذوقه ونقده وتأريخه ؛ وتلتمس له قيماً أصيلة محررة من الشوائب الدخيلة والرواسب المتخلفة .

والمحاولة تحمل عنوان « قيم جديدة » .

ولست أعنى بالجدة هنا ، أننى أضيف إلى أدبنا قيماً لم يعرفها تراثنا ، أو أحمل عليه منها ما لا عهد للبيئة العربية به فى قديمها الأصيل ، وإنما الذى أعنيه هو استخلاص جديدٍ من القيم غابت عمن أرخوا لأدبنا ونقدوه . فهى جديدة بالنسبة إلى ما لا نزال نردده من أحكامهم وموازينهم ، وإن تكن فى الواقع مستندة إلى ما يقدمه إلينا تراثنا . حين ننظر فيه نظرة متحررة من أذواق نقاد سلفوا .

ولست أدّعى أننى بهذه المحاولة وفيت بما يجب للموضوع من إحاطة وشمول ؛ ولا أزعم لها القدرة على تحرير أدبنا من أثقال هاتيك الرواسب ؛ فالأمر أخطر وأوسع وأعمق من أن ينهض به جهد فرد . وإنما الذى أرجوه أن ألفت إلى خطر الموضوع ، وأن أخطو فى الطريق الشاق الطويل خطوة تتجه نحو الغاية البعيدة التى أعرف — قبل سواى — أنها لن تدرك إلا بكفاح متصل ، وجهود متآزرة ، يبذلها المؤمنون برسالة الأدب فينا ، المقدرون لحاجتنا إلى دراسة جديدة لتراثنا ، بوعى جديد وفكر حر ، يلائم كرامتنا العقلية ومستوانا الفنى ، ونظرتنا الجادة المُكبِرة لمكان الأدب فى الحياة . . .

وأرجو أن يستقبل قومى هذه المحاولة التى أقدمها . دعوة ومثالاً ، بشىء من رحابة الصدر سعة الأفق . . .

وبالله التوفيق .

عائشة عبد الرحمن

مدخـــل

وأنا أشتغل بهذه المحاولة فى الجامعة من زمن ؛ أريد بها أن نستخلص لأدبنا العربى قيما جديدة نابعة من تراثنا الأصيل ؛ دون التزام بالقيم وبالأحكام التى ذهب إليها نقاد نظروا فى هذا التراث بذوق عصورهم ، وحكموا عليه بعقلية زمانهم ، وقوموه بموازين بيئاتهم ومجتمعهم ؛ ثم تركوا أحكامهم وقيمهم للعصور من بعدهم ، فتناقلها الدارسون منا جيلاً بعد جيل ، وصار لها من حرمة القدم وطول العمر وسلطان الإلف ، ما أضفى عليها مهابةً ترد عنها محاولات التجديد ؛ وتحميها ممن يجرؤون على معاودة النظر فيها بعقلية متحررة ووعى مرهف .

ونقطة الانطلاق فى هذه المحاولة ، **هى التفرقة بين تراثنا الأدبى وبين أحكام مؤرخيه وآراء ناقديه** : نقصد بالتراث النصوصَ الأدبية التى قاومت عوادى الزمن ووصلت إلى أيدينا ، وهى مرجعنا الأول : إليها نحكم ، ومنها نستخلص القيم ، وبها نفصل فيما لعله يشتجر من خلاف بيننا وبين النقاد . ولا تناقض هنا بين اطمئناننا لما اعتمده علماء الشعر الأقدمون من تراث العربية الأدبى ، وبين عدم التزامنا بما لهم فيه من آراء وأحكام ومقاييس نقدية ، فهؤلاء الخبراء حجة فى المادة الأدبية من نصوص وأخبار ، وهم هم الذين جمعوا تراثنا الأدبى وحفظوه ودونوه . أما إذا جاوزنا النص الأدبى والخبر التاريخى ؛ مما هو مادة الدرس ، إلى التذوق والحكم والتقدير والتقويم ، فإن الموقف يختلف ، لأن مرجعه هنا ذوق العصر وشخصية الناقد وعقلية البيئة ومزاجها .

ونعرف أن التأليف فى دراسة الشعر ونقده ، قد بدأ حوالى منتصف القرن الثانى للهجرة ؛ فى ظل نظم سياسية واجتماعية غير تلك التى كانت للعرب فى الجاهلية أو صدر الإسلام . وكان مركز الحركة — أول ما كان — فى بغداد عاصمة العباسيين ، التى كانت تصب فيها روافد وتيارات وافدة من شرق وغرب ، مؤثرة فى مزاجها العام وذوقها الأدبى بمؤثرات طارئة ، منها الغريب الدخيل الذى حملتْه

ومكنت له من المجتمع الإسلامى ، شعوبيةٌ غازية . وذلك ما يجب أن يُحسَب له كل حساب ، فى فهم قيمهم الأدبية ووزنها .

* * *

ويتجه بنا المنهج إلى درس النص الأدبى متصلاً بالحياة ، واستقراء المادة التاريخية فى ضوء واقعها ، ثم عرض الدلالات والقيم التى تعطيها ، على القيم النقدية الموروثة ، دون أن تغيب عنا المؤثرات الموجهة لها .

وما من شك فى أننى حين أستقرئ تراثنا ، أتأثر كذلك فيما أختار منه بذوق عصرى وطابع شخصيتى ومزاجى ، ومذهبى فى الفن والحياة ، لكنى حريصة تمامًا على ألا أخرج بنصٍّ ما عن واقعه وبيئته ، حريصة على أن أصغى فيه إلى نبض عصره ومجتمعه . ومن هنا يكون الجديد فى محاولتى ، هو موقفٌ لى من تراثنا ، أجلو منه ما قد يكون النقاد والمؤرخون ألقوا به فى منطقة الظل ، متأثرة بعصرى ومزاجى فيما ألتقط من نبض حياةٍ سجله تراثنا الأدبى ، ولم يصغ إليه أولئك السلف ، لأنه لا يستجيب لمزاج عصورهم وأنماط شخصياتهم وأوضاع مجتمعاتهم .

القِسْمُ الأوّل

أدبنا والحياة في العصر الجاهلي

ـ قديمنا الأصيل

ـ بيئات الشعر الجاهلي :

١ ـ شاعر القبيلة

٢ ـ الشعراء الصعاليك

٣ ـ شعراء البلاط

obeikandl.com

obeikandl.com

قديمنا الأصيل

« . . ثم كانت الرواة بعد ، فزادوا فى الأشعار، وليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال » .

ابن سلام

« طبقات الشعراء »

حين أحاول أن أستحدث قيماً جديدة للأدب العربى، أجد من الضرورى أن أعود إلى قديم لنا بعيد، لكى أستمد لأدبنا مفهوماً نابعاً من أصوله النقية ، وقيماً حرة لا ينكرها أدب العربية فى جوهره الصافى وذوقه الأصيل . .

كثير منا يشفقون من مثل هذه العودة ، ويريدون لنا — بحسن نية — ألا نشغل بماض عن حاضر ، وألا ننصرف عن حياتنا هذه التى نحياها ، إلى حياة قديمة سلفت وانقضت .

ولست أقول هنا إن مثل هذا المذهب إثم وخطيئة ، فليس المجال مجال وعظ خلقى ، لكنى أقول إن وعينا لذاتنا يقتضى حتماً أن نعرف ماضينا ، وإن حياتنا اليوم لا يمكن أن تقوم إذا بترت منها أصولها . وإذا كانت دراسة التاريخ القديم لأمة ، ضرورة لا يهون أن نتصور إمكان الاستغناء عنها ، فكذلك الأدب ؛ لا يجرؤ واع على الزعم بإمكان الاستغناء عن معرفة قديمنا منه ، لا لكونه تسجيلاً وجدانياً لتاريخنا فحسب ، ولكن — كذلك — لما له من أثر فى تكوين ذوقنا ووجداننا ، على مر العصور وتتابع الأجيال .

وقانون الوراثة هنا أشد سيطرة واحتكاماً منه فى أى ميراث آخر ، إذ الأمر فيه متصل بالشخصية الوجدانية التى تتكون لأمة على مرّ الزمان وتتلقاها الأجيال

منها متعاقبة . وما ذوقنا اليوم إلا خلاصة لمؤثرات شتى خضع لها أجدادنا ، وأضاف إليها كل جيل منهم ما استحدث ، دون أن يفلت من ميراث له ، أخذه تلقائياً أو بالتلقين ، من آباء له وأجداد .

وقد يبدو لمن يتعجلون النظر ويرتجلون الحكم ، أن ذوقنا العصرى بعيد كل البعد عن ذوق جيل مضى ؛ لكن النظرة المتأنية الفاحصة ، لا تلبث أن تهتدى إلى ما وراء الظاهر ، من عنصر موروث فى ذوقنا ، يصله بأقدم ما كان لأسلافنا من خواص ذوقية . وهذه قضية فرغ العلم من إثباتها بحيث لا أجد ضرورة إلى الإطالة فى التماس الأدلة والشواهد عليها ، والحياة أمامنا تقدم لنا فى كل وقت وفى كل بيئة ، نماذج من الناس ، يعيشون فى ظروف واحدة ، ويخضعون لمؤثرات عصرية متماثلة ، ثم يختلف قوم عن قوم ، أثراً لاختلاف ميراث احتكم فى وجدان كل جماعة ، وترك أثره الواضح فى الشخصية القومية والمزاج العام .

هى إذن رجعة لابد منها إلى أدبنا الأول ، وعودة لا مفر منها إلى قديمنا الأصيل ، نرد بها على أدبنا ما سلبته إياه عصور الانحطاط والضعف ، ونلتمس لمزاجنا الأدبى الحاضر ميراثه النقى ، ونهتدى به إلى الشوائب الدخيلة التى جمدت ذوقنا الفنى لأدبنا ، وأصابت مناهج الدرس الأدبى بما يشبه العقم .

* * *

ونقطة البدء يجب أن ترجع إلى العصر الجاهلى ، أو بتحديد أدق ، إلى القرنين الأخيرين للجاهلية ، وهى الفترة التى استبقى الزمن بعض تراثها الأدبى . ولن نطيل الوقوف هنا عند مسألة الشك فى هذا الذى استنقذ من شعرنا القديم ، فهما يكن الرواة قد غيروا منه أو أضافوا إليه لسبب أو لآخر ، يبقى فى جملته غير متهم بالزيف أو الوضع . والقدر الذى حُمِل عليه زوراً وأضيف إليه انتحالاً ، كان من مهارة التقليد بحيث فات خبراء الشعر الأقدمين — من أمثال خلف الأحمر ، وأبى عبيدة ، والأصمعى والمفضل الضبى وابن سلام وأبى عمرو بن العلاء وأبى زيد القرشى ؛ ثم ابن المعتز وأبى تمام وابن دريد والسكرى — أن يميزوه ؛ فاكتسب بهذه المهارة فى التقليد صفة التمثيل للشعر الجاهلى ، كما اعتمده أقرب الناس عهداً به .

وعملية الجمع والتدوين ، قد مرت بمراحل من التصفية والاختبار على أيدى ثقات أمناء ، وعلماء خبراء[١] ؛ كان فيهم من عاصر أحفاد الشعراء الجاهليين وشد رحاله إلى مواطنهم بالبادية التى ظلت — لفترة طويلة — بعيدة نسبياً عن المؤثرات الطارئة ، وفى شبه عزلة عن التيارات السياسية والمذهبية التى عبثت بالشعر ما عبثت .

وربما كان من المجدى أن نضيف هنا ملحظاً لم يأخذ حظه من الاعتبار عند من أنكروا الشعر الجاهلى ، وهو أن حركة الجمع والتدوين فى القرن الثانى قد قامت لدواعٍ دينية وقومية بالغة الخطر ، أضفت عليها حرمة كانت جديرة بأن تصون تلك الحركة إلى حد كبير ، من عبث الأهواء وتزييف المرتزقة من الرواة ، وتخضعها لرقابة دقيقة حازمة ، كشفت عن أكثر الزائف ، وميزت رواة عرفوا بالضبط والثقة والأمانة ، وجرّحت آخرين اشتهروا بالكذب والتهاون والوضع .

فبقدر الحاجة إلى هذا التراث ، كانت جدية عملية الرواية وحرمتها وفحص المرويات وامتحان الرواة والأعراب . فى حذر بالغ ، وحرص شديد[٢] .

ويكفى لبيان ما كان لرواية الشعر من حرمة أن نقرأ أن « أبا عمرو بن العلاء » حرق مروياته جميعاً حين اكتشف فيها بيتاً واحداً مزوراً ؛ وظل ما عاش يستغفر ويتوب ! »

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ٧ ، ٩ ط بريل .

(٢) ابن سلام : طبقات الشعراء . ص ٥ ط أوربا (بريل) وانظر معها صفحات ٧ ، ٩ ، ١٤ ، ٢٧ من أمالى اليزيدى ط الهند .

بيئات الشعر الجاهلى

تظل دراستنا للشعر الجاهلى غير مجدية ، ما لم نميز بين بيئاته الاجتماعية والفنية .

ومؤرخو الأدب عندنا ، قد مضوا على دراسة الأدب عصوراً زمنية تتبع العصور السياسية وتسير فى فلكها . فيبدأ العصر الأموى للأدب بتولى الأسرة الأموية الحكم سنة ٤٠ للهجرة ، وينتهى بسقوطها سنة ١٣٢/ هـ ليبدأ عصر الأدب العباسى مع دولة بنى العباس ، ويظل معها حتى تسقط بغداد بين أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ ، وهكذا .

وكشف الدرس المنهجى عن أخطاء هذا التقسيم ، فليست الحياة أحداثاً سياسية فحسب ، ليسير الأدب معها بمعزل عن العوامل الدينية والاقتصادية ، والأوضاع الاجتماعية والمستويات الفكرية والحضارية . وإذا جاز أن يبدأ عصر سياسى فى يوم بذاته ، فالمزاج الأدبى والوجدان الفنى لا يتغير بين يوم وليلة . ثم إن عصراً واحداً كالعصر العباسى أمثلاً ، يمتد زماناً فيستغرق أكثر من خمسة قرون ، ويمتد مكاناً من أقصى المشرق الآسيوى إلى المغرب الإفريقى ، وطبيعة الحياة تأبى أن نأخذ أدب هذا العصر جملةً ، فنصدر عليه أحكاماً عامة ، لا نميز فيها بين بيئة وأخرى .

والأقدمون أنفسهم قد اتقوا هذا المأخذ فى تصنيفهم لطبقات الشعراء . فكان منهم من وزع الشعراء على أقاليمهم ، كالثعالبى فى (يتيمة الدهر) والعماد الأصفانى فى (الخريدة) وابن بسام فى (الذخيرة) . . .

وبقينا مع ذلك ندرس الأدب عصوراً سياسية زمنية ، تهدر العوامل الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وتغض من العوامل الإقليمية والمستويات الحضارية ، حتى كان « أستاذنا أمين الخولى » هو الذى حررنا من ضيق الأفق وسطحىّ التناول وجانبىّ الرؤية ، ووجهنا إلى دراسة الأدب والفن تفسيراً وجدانياً للحياة بكل أبعادها[1] .

* * *

(١) أمين الخولى : (الأدب المصرى) ط دار المعارف بمصر .

وقد يبدو أدب العصر الجاهلى وحدة زمانية ومكانية ، من حيث لم يصل إلينا منه إلا ما بقى من تراث القرنين الأخيرين قبل الإسلام ولم تكن العربية قد خرجت من جزيرتها ، وخالطت الشعوب التى تعربت بعد الفتوح الإسلامية .

ومع ذلك ، استطاع دارسون محدثون أن يميزوا فى الأدب الجاهلى بين بيئات البدو والحضر ، وعلى هذا التمييز أدار المستشرق « نالّينو » (١) تقسيمه لبيئات الشعراء الجاهليين ، فهم عنده شعراء البادية ، وشعراء الحضر ومعهم شعراء الحيرة وغسان .

و « محمد بن سلام » قد التفت إلى هذا الملحظ من عصر مبكر ، فجعل شعراء القرى العربية — الحواضر : مكة ويثرب والطائف والبحرين — طبقة خاصة ؛ فى كتابه الرائد (طبقات الشعراء) .

وكنا فى الدراسة الجامعية ، على هذا التقسيم زمنًا . حتى بدا لنا عُسْرُ التمييز بين حضر وبدو ، فى العصر الجاهلى الذى هو بطبيعته عصر بداوة ! وشقّ علينا أن نقتنع ، فضلاً عن أن نقنع طلابنا ، بفوارق من خشونة ورقة ، وجفاوة ولين ، وإن الشاعر من بدو أو حضر ليتغزل أو يرثى فيكاد يذوب من رقة ، ويفخر أو يتوعد أو يهجو فيكاد يقذف بالصخر ! وإن القصيدة الواحدة لتتفاوت بين جزالة وخشونة ويسر ولين ، تبعًا لاختلاف الموقف الشعرى . وبحسبنا أن نذكر تفاوت أبيات الغزل فى (معلقة امرئ القيس) عن وصفه لليل والفرس ، وأبيات الناقة فى (معلقة طرفة) عن خواطره وتأملاته فى الموت والحياة ، وأبيات (معلقة الحارث بن حلزة) فى موقف الارتحال ، عن أبياته فى موقف الخصومة بين بكر وتغلب . . .

و « النابغة الذبيانى » عاش فى قصور المناذرة بالحيرة ، حيث الحياة المترفة الناعمة فى أعلى مستوى عرفته بيئة حضرية لعرب الجاهلية . . .

فاسمع ما قال « أبو عبيدة » فى شعر هذا النابغة :

« إن شئتَ قلت : ليس بشعر مؤلف ، من تأنيقه ولينه . وإن شئتَ قلت :

---

(١) فى محاضراته بالجامعة المصرية فى تاريخ الأدب العربى ، وقد جمعتها ابنته المستشرقة السيدة « مريم نالينو » ونشرتها دار المعارف بالقاهرة .

صخرةٌ لو رُديت بها الجبال لأزالتها » [١] .

لقد كنا نخرج من جهد المقارنة بين شعر البدو وشعر الحضر فى الجاهلية ، بعطاء قليل لا يزيد على بعض ظواهر شكلية وفروق لفظية وأسلوبية لا تعطى قيما فنية أو خصائص جوهرية ذات بال .

لأننا نقيس ما بين البداوة والحضارة بمفهوم عصرنا ، فننسى أن الشاعر الجاهلى فى مكة أو يثرب والطائف . لم يكن يركب سيارة ويستضىء بغاز أو كهرباء ، حين كان معاصره فى صميم البادية ، يركب الناقة ويوقد النار ! !

* * *

واتجهت محاولتى فى بيئات الشعر الجاهلى إلى التمييز بين : شاعر القبيلة ، وشاعر البلاط ، والشعراء الصعاليك . فبدت لى فروق جوهرية فى وظيفة الشعر ومكان الشاعر ، وفروق فنية ذات خطر ، فى ذاتية الشاعر الفردية والجماعية ، وفى مكانته ورسالته ، وفى فنون للشعر تروج فى بيئة دون أخرى ، مؤكدةً ما بين الفن والحياة من حتمى الصلات .

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ١٦٨/١ ط المعارف .

شاعر القبيلة

قال نقاد : « الشعر تجارة العرب »
ابن رشيق ، العمدة

ويقول تراثنا : الشعر فى المجتمع العربى الأصيل سيادة وقيادة .

obeikandl.com

obeikandl.com

« الشعر تجارة العرب » .

كلمة تناقلها النقاد من قديم ، حتى وصلت إلى « ابن رشيق » فى القرن الخامس الهجرى ، فسجلها فى كتابه (العمدة فى صناعة الشعر ونقده) [1] قيمةً نقدية مقررة ، يمكن أن تفسر لنا كثيراً من الأحكام والمقاييس التى أقاموا عليها وزنهم للشعر وتصرفهم فى أقدار الشعراء ومراتبهم .

كما يمكن أن تفسر لنا كذلك اضطراب مقاييسهم وتناقض أحكامهم ، وبخاصة فى الشعر الجاهلى الذى لم يسعفهم على ما استقر فى أذهانهم وأذواقهم من مفهوم للأدب ووظيفته .

وأرجئ بيان هذا كله حتى نحتكم إلى تراثنا من الأدب الجاهلى ، لنرى هل كان الشعر حقًّا تجارة العرب ؟ وهل أراد المجتمع العربى لشعرائه أن يجعلوا الشعر بضاعة ، ويستفرغوه فى المدح ؟

وإذ نمضى إلى نقطة البدء مطمئنين إلى ما لدينا من تراث أدبى ، نرى المجتمع العربى فى ذلك الزمن البعيد قد حدد للشعر مهمته ، وهى التعبير عن الجماعة ، كما حدد للشاعر مكانه حين وكل إليه القيادة المعنوية لقومه . وبمقدار ما كان لهذه المهمة من جلال وخطر ، كانت القبيلة تحتفل بنبوغ شاعر فيها ، وتتقبل التهنئة فيه ، وتعده ذخيرة عِزَّةٍ وقوة لها [2] .

كان الشعر إذ ذاك سلاحًا من أمضى الأسلحة فى حياةٍ لا مكان فيها إلا للقوى الغالب .

وكان اعتزاز القبيلة بشاعرها أكبر من اعتزازها بالفارس الذى يحمى الحمى بسيفه . وهو وضع قضت به ظروف الحياة فى ذلك العهد الجاهلى ، ودفعت إليه حاجة القبيلة إلى قيادة وجدانية ، تبث فى أبنائها روح المروءة والنجدة وإباء الضيم ، وتحدوهم فى صراعها من أجل الوجود والبقاء . وهذا يفسر لنا ما نقلته إلينا

(١) ابن رشيق : العمدة — ١/٢١ ط هندية .

(٢) اقرأ باب (احتماء القبائل بشعرائها) فى العمدة لابن رشيق : ١/٢٧ .

الأخبار من اهتمام القبيلة برواية شعر الشعراء منها والدعاية له ، وحرصها على أن تلقنه صغارها ، وترديده فى المحافل والمجامع وتذهب به إلى الأسواق العامة والمواسم الجامعة ، لتنشده على مسمع الوفود المحتشدة من مختلف القبائل[١] .

ولقد بلغ من شغف تغلب بقصيدة شاعرها الفارس « عمرو بن كلثوم » أن ظلت لمدى أجيال ترويها دون سأم أو ملالة ، وتحفظها أبناءها استثارة لحميتهم وإذكاء لنخوتهم ، حتى قال الشاعر من بكر[٢] :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

يفاخـــرون بها مذ كان أولهم ... يا لَلرجالِ لِفخرٍ غير مسؤوم !

وكان الشاعر هو الذى يندب للدفاع عن حق الجماعة فى مواقف الخصومة والنزاع ، ويتولى عرض قضيتها فى مجالس الحكم والقضاء .

وقصة الخصومة بين بكر وتغلب معروفة ، حين تدخل « عمرو بن هند » للصلح بينهما ، وأخذ من الحيين رهناً ، من كل حى مائة غلام ، ليكف بعضهم عن بعض . ثم هاج الشر بينهم مرة أخرى ، واختصموا إلى « عمرو بن هند » الذى بدا منه التحيز لبنى تغلب ، ولم يكتم تحيزه ، بل قال لمحاميهم « النعمان بن ثعلبة اليشكرى » مخذلاً : يا أصم جاءت بك أولاد ثعلبة تناضل عنهم وهم يفخرون عليك ؟ !

فقال النعمان : وعلى مَن أظلَّت السماء كلها يفخرون ثم لا يُنكَرُ ذلك !

وكره الملك جوابه ، وعاد يسأله : يا نعمان ، أيسرك أنى أبوك ؟

فرد عليه النعمان — وقد غاظه تحيزه لبنى تغلب — ردًّا جارحًا .

قالوا فغضب عمرو بن هند غضبًا شديداً حتى هم بالنعمان ، لولا أن قام شاعر بكر « الحارث بن حلزة اليشكرى » فارتجل قصيدته المشهورة :

---

(١) اقرأ فى هذا كتاب « أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام » للأستاذ سعيد الأفغانى . ص ٢٩٢ وما بعدها — ط ٢ دمشق .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء — ١/٢٣٦ ، ط المعارف .

آذنتنا ببينها أسماءُ رب ثاوٍ يُمَلُّ منه الثواء !

وكان الملك قد أمر فجعل ستراً بينه وبين « الحارث » لوضّح به . فلما مضى فى إنشاده ، لم يزل عمرو يقول : أدنوه ، أدنوه . . حتى أمر بطرح الستر وأجلسه قريباً منه ، ثم لم يملك إلا أن ينصف بكراً على ما بدا أول الأمر من تحيزه لتغلب[1] .

وقد بدأ الشاعر يدفع عن قومه ما اتهمتهم به تغلب من ممالأة عدوٍّ لهم ، وينكر أن تؤخذ بكر بذنب غيرها :

وأتانا عن الأراقم أنبا ء وخطب نُعنى به ونُساء
يخلطون البرىء منا بذى الذنب ولا ينفع الخلىَّ الخلاء
زعموا أن كل من ضرب الـ عيرَ مَوْالٍ لنا ، وأنّا الوَلاء !

ثم راح — بعد حديث مثير عن عزة بكر — يعرض القضية من وجهة نظر قومه ، ويبسط وسائل الفصل فيها :

أيما خطة أردتم فأدو ها إلينا تمشى بها الأملاء
إن نبشتم ما بين ملحة فالصا قب فيه الأموات والأحياء
أو نقشتم فالنقش يجشمه النا س وفيه الصحاح والإبراء
أو سكتم عنا ، فكنا كمن أغـ ـمض عينا ، فى جفنها أقذاء
أو منعتم ما تسألون ، فمن حُدَّ ثتموه لـه علينا العلاء ؟ !

ثم انثنى ، والفرصة مواتية ، يتيه بأمجاد بكر ومواقع لها مشهودات ، ويعدد مواقع أخرى هُزمت فيها تغلب ، متسائلاً — فى تعريض جارح — عن جريرة بكر فيما ذاقت تغلب من هزائم .

وما سجلَ مفاخرَ القبائل العربية فى الجاهلية إلا شعراؤها ؛ ولا نالت قبيلة من عدوها بمثل ما كانت تنال بهذا السلاح الباتر المصمى .

ولا نظن « المسيب بن علس » كان يهذى أو يتكثر أو يبالغ ، حين قال فى « القعقاع بن معبد بن زرارة ، سيد بنى تميم » :

---

(١) القصة بالتفصيل ، فى الأغانى : ٩/١٧١ ط الساسى .

فلأُهدينّ مع الريـــاح قصيدة منى مغلغلة إلى القعقاع !
أنت الذى زعمت معـــد أنه أهل التكرم و الندى و الباع [١]

وما كانت منزلة سيد ، مهما ترتفع ، بحيث تغنيه لو تعرض له شاعر مقتدر بهجاء تحمل الريح أصداءه إلى شتى أرجاء الجزيرة .

وهل أغنى سيداً مثل « أوس بن حارثة بن لأم الطائى » أنه أكرم العرب ، عندما أغرى حساده شاعراً بهجائه ؟

يروون أن وفود العرب اجتمعت يومًا عند « النعمان بن المنذر » فدعا بحلةٍ فاخرة ، وقال لهم : احضروا فى غد فإنى مُلبِس هذه الحلة أكرمكم .

فحضر القوم جميعًا إلا « أوس بن حارثة » ولما سئل : لم تخلفت ؟ أجاب : «إن كان المراد غيرى فأجمل بى ألا أكون حاضراً ، وإن كنت أنا المراد فسأطلب ويعرف مكانى » .

وافتقد النعمان أوسًا فيمن حضر ؛ فبعث إليه من يقول له :

ـ احضر آمنًا مما خفت .

وحضر « أوس » فألبسه « النعمان » الحلة .

ولم ير حساده سبيلاً إلى الاشتفاء منه إلا أن يغروا شاعراً بهجائه . وقد سألوا « الحطيئة » أن يهجوه وله ثلاثمائة ناقة ، فأبى وقال :

ـ كيف أهجو رجلاً لا أرى فى بيتى مالاً إلا من عنده ؟ وأردف منشداً :

كيف الهجـــاء وما تنفك صالحة من آل لأم بظهر الغيب تأتينى ؟
جادت لهم مضرُ العليا بمجدهم وأحرزوا مجدهم حينًا إلى حين
أحمت رماح بنى سعد لقومهم مراعىَ الحُمر والظلمان والعِين

وبلغ الخبر « بشرَ بن أبى حازم » فجاء يعرض على القوم أن يدفعوا له الإبل ويهجو « أوساً » . فلما تمت الصفقة أرسل «بشر» لسانه فى « أوس» وعرَّض [٢]

---

(١) طبقات الشعراء ص ٢٦ .

(٢) اقرأ من قصائد بشر فى هجاء أوس : رقم ١ ، ٤ ، ١٧ من الديوان ـ دمشق ١٩٦٢ . تحقيق الدكتور عزة حسن .

بأمه « سعدى » — بنت حصن — مفحِشًا فى الهجاء ، ثم انطلق بالإبل وهو يترنم مستهينًا بوعيد أوس أن يحرقه :

فيا عجبــاً أيوعدنى ابن سعدى وقد أبدى مساوئه الهجــاء ؟

فما كاد يبعد ، حتى أغار رجالُ أوس على الإبل فاكتسحوها ، فجعل الشاعر لا يستجير حيًّا من أحياء العرب على استرداد ماله إلا قيل له : قد أجرناك إلا من أوس !

ثم وقع « بشر » بعد ذلك أسيراً فى يد أوس[1] فدخل على أمه « سعدى » يبشرها بأسرِ الشاعر الذى هجاها فاستحق أن يحرقه ، فقالت :

— قبح الله قومًا يسودونك أو يقتبسون من رأيك ! لقد مات أبوك فرجوتك لقومك عامة ، فأصبحت والله لا أرجوك لنفسك خاصة . . أزعمت أنك تحرق رجلاً هجاك ؟ إذاً فمن يمحو ما قال فيك ؟ وايمُ اللهِ لو فعلتها ما استقلتها أنت ولا قومك أبداً . .

قال : فما أصنع به ؟

فسألته : أو تطيعنى فيه ؟

أجاب : نعم . .

قالت : فإنى أرى أن ترد عليه ماله وتعفو عنه وتحبوه . وأفعلُ مثلَ ذلك فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحُه !

وامتثل أوس : خرج إلى بشر ، وأنبأه بما أمرت به أمه « سعدى » فيه ، فبهت الشاعر لحظة ثم قال :

— لا جرم والله لامدحتُ أحداً ، حتى أموت ، غيرَك !

وانطلق ينشد من قصيدة له :

إلى أوسِ بن حــارثــة بن لأم ليقضىَ حاجتى ، ولقد قضاها

---

(١) انظر مختلف الروايات فى أسره ووقوعه فى يد أوس ، فى الكامل لابن الأثير ١/٢٢٩ ط القاهرة . واقرأ معه (الشعر والشعراء لابن قتيبة) ١/٢٧١ المعارف .

وخزانة الأدب للبغدادى : ٢/٢٦٤ ط بولاق ، و ديوان مختارات شعراء العرب لهبة الله العلوى) : ٧٤ .

وما وطئ الثرى مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها[١]

والحادثة لها دلالتها على مبلغ خطر الشعر وصرامة سلاح اللسان .

وشبيه بها ما يروون من قصة « الحارث بن أبي شَمِر الغسانى » ملك الشام مع الشاعر « علقمة بن عبدة التميمى » : كان الحارث قد أسر — فى موقعة له مع المنذر ابن ماء السماء — مائة رجل من بنى تميم ، فيهم شأس بن عبدة . فاستشفع أخوه علقمة لقومه ، فأطلق له « الحارث » كل الأسرى من بنى تميم ، ثم زاد فأجزل له العطاء موقناً أنه الرابح فى الصفقة ، فإن جزاء المكرمة مدحة شاعر : يفنى المال ، ويموت الآسر والأسير ، وتبقى قصيدة علقمة فى الملك الحارث الغسانى :

طحا بك قلب فى الحسان طروب بُعَيْدالشباب ، عصرَحانمَشيبُ

إلى الحارث الوهاب أعملتُ ناقتى لِكَلكلِها والقُصَّريين وجيبُ

إليك أبيتَ اللعن كان وجيبُهـا بمشتبهاتٍ ، هولُهنّ مهيب

فلا تحرمَنّى نائلا عن جناية فإنى امرؤٌ وسط القباب غريب

وفى كل حىٍّ قد خبطتَ بنعمـة فحُقّ لشأس من نداك[٢] ذَنوب

* * *

وإنما بلغ الشعر هذه الدرجة من الأهمية والخطر لأن المجتمع العربى كان يضع الشاعر فى مكانة ما بعدها مكانة ؛ فكانت وظيفته فى القبيلة من أخطر وظائف الزعامة والقيادة ، وهو وضع قد قضت به ظروف البيئة ودفعت إليه حاجة القبيلة إلى قيادة معنوية ؛ تبث فى أبنائها روح البسالة والحمية وإباء الضيم .

كانت القبيلة فى حاجة إلى مثل صوت « لقيط بن معمُر الإيادى » يبعثه من الحيرة إلى قومه بنى إياد ؛ حين شاهد كسرى يعبئ جيشاً لغزوهم :

يا لهفَ نفسىَ إن كانت أموركم شتّى ، وأبرِم أمرُ الناس فاجتمعا

---

(١) ابن الأثير : الكامل — ١/٢٢٩ . والمبرد : الكامل — ٣/٥٤ من بغية الأمل .
وابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٢٧١ . وانظر ديوان بشر ، ص ٢٤ ط دمشق ١٩٦٢ .

(٢) الشعر والشعراء : ١/٢٢١ — وانظر معها باب شفاعات الشعراء فى (العمدة) ١/٣٠ .

أحـــرار فارس أبناء الملوك ، لهم ... من الجموع جموع تزدهى القَلَعا
فهم سراعٌ إليكم بين ملتقطٍ ... شوكاً ، وآخر يجنى الصاب والسلَعا
هو الجـــلاء الذى تبقى مذلته ... إن طار طائركم يومًا وإن وقعا
قوموا قيـــامًا على أمشاط أرجلكم ... ثم افزعوا ، قد ينال الأمن من فزعا
وقلِّـــدوا أمركمْ ، لله دركمُ ... رحبَ الذراع بأمرِ الحرب مضطلعا
لامترفاً إنْ رخاءُ العيش ساعَدَه ... ولا إذا عضَّ مكروهٌ به[1] خشعا

وكانت فى حاجة إلى مثل « عبيد بن الأبرص الأسدى » يقود قومه بنى أسد حين بغى عليهم الملك «حجر بن عمرو الكندى» وأذلهم بأخذ سراتهم وقتلهم ضرباً بالعصى ؛ فصاح « عبيد » وهو فى الأسر ؛ يقول ناقمًا على قومه عُبيد العصا ذلتهم وعبوديتهم :

يا عـــين ما فابـــكى بـــنى ... أســـد ، همُ أهـــل النـــدامهْ
أهـــل القِبـــاب الحُمـــر والنعَـــم المؤبـــل والمـــدامـــه
مهـــلا أبيت اللعـــن ، مهـــلا ... إن فيما قـــلت آمَـــه
فى كـــل واد بين يـــثرب والقصور إلى اليمامـــه
تطريبُ عـــانٍ أو صيـــا ... ح مُحَـــرَّق وزُقـــاء هـــامه
أنت المليـــكُ عليهـــمُ ... وهمُ العبيـــدُ إلى القيـــامه

وهبَّ بنو أسد ثائرين على البغى والهوان ، وركبوا كل صعب وذلول حتى انتهوا إلى « حجر » فقتلوه[2]. وشاعرهم فى الطليعة ، يلهب الحماس ، ويذكى الحمية ، ويحمى وجدانهم من التأثر بوعيد « امرئ القيس بن حجر » وتهديده فيقول له ساخراً[3] :

يـــاذا المخـــوِّفنـــا بقتـــ ... ـلِ أبيـــه إذلالا وحَينـــا
أزعمتَ أنـــك قـــد قتلـ ... ـت سراتنـــا ؟ كذبـــاً ومَينـــا

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ / ٢٠٠ ط المعارف . واقرأ القصيدة كاملة فى «ديوان مختارات شعراء العرب لهبة الله العلوى » ط العامرة ١٣٠٦ هـ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ / ١٠٥ ط المعارف .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ١ / ٢٢٤ .

هــلاَّ عــلى حُجْـرِ بنِ أ مِّ قَطامِ تبكى ،لا علينــا ؟
إنــا إذا عضَّ الثقــا ف برأس صَعدتنــا لَوينا
نحمى حقيقتنــا وبه ضُ القــوم يسقط بين بينــا
هــلا سألت جموع كِنـ ـدة يــوم ولَّــوا : أين أينــا
أيــامَ نضرب هــامهم ببواتــرٍ حتى انحنينــا

« نحمى حقيقتنا ! »

يا لها من كلمة شاعر ، يعرف مكانه ورسالته : سيداً قائداً !

ويا له من شعار ، يمنحنا إياه تراثنا العريق الأصيل فى نضالنا اليوم لنحمى حقيقتنا ونحقق وجودنا !

* * *

ذلك هو مكان الشاعر فى قبيلته ، فهل أهدر هذا الوضع ذاتية الشاعر ؟

هذا هو السؤال الهام الذى يجب أن نفصل فيه ، لأن الجواب عنه يحسم قضية طالما اختلفنا فيها ، ويحدد لنا القيمة الأصيلة لتراثنا العريق .

والشائع فينا أن ذلك الوضع الذى عرفناه للشعر فى القبيلة ، قد أهدر ذاتية شاعرها . وهو ما دعا كثيراً من الدارسين إلى إنكار وضع الشاعر فى قبيلته بدعوى أنه صار مجرد بوق لها ، على حد تعبير الزميل الأستاذ « الدكتور شكرى فيصل » فى كتابه عن « تطور الغزل » .

وهم فى هذا الإنكار يصدرون عن اقتناع بمقياس نقدى هو « **ذاتية الفن** » بمعنى أن يكون الفن معبراً عن ذات صاحبه نابعاً من وجدانه . وهو مقياس أصيل صحيح ، لا خلاف عليه ؛ غير أن قياس شاعر القبيلة به قام على فهم خاطئ للذاتية ، وحكم سريع على ديوان شعراء القبائل . ولابد لكى يستقيم الميزان أن نبين وجه الخطأ هنا ، ليتاح لنا وضع تراثنا الأدبى فى مكانه الصحيح بين الذاتية والجماعية ، على أساس من قيم فنية حرة ، خالصة من الشوائب الدخيلة على جوهر الفن .

والذى لا يمكن أن ننكره ، هو أن شاعر القبيلة كان ملتزمًا بأن ينطق بلسان الجماعة ، فهل يعنى هذا أنه كان مجرد بوق آلى ، لا يجد نفسه ولا ينفعل بذاته ؟ هل معناه أن المجتمع كان يلزمه بإلغاء شخصيته الفردية ؟

لو تحررنا من سيطرة الفكرة المحتكمة فينا ، لوجدنا أن المعنى الحق لشاعر القبيلة هو أن ذاتيته لا تظهر منعزلة عن جماعته ، فهو فرد فى جماعة تؤهله موهبته لأن يشغل فيها وظيفة ذات خطر ، هى وظيفة الشاعر العام . مثله فى ذلك مثل الفارس يشغل وظيفته فى الذود عن الحمى ، ومثل شيخ القبيلة يشغل فيها وظيفته الأبوية بحكم ما له من مؤهلات ذاتية . ولم يقل أحد إن فارس القبيلة أو شيخها . قد أهدرت فرديته بشغله وظيفة عامة ، فلماذا نقول إن الشاعر لم تعد له ذات ، إذا نطق بلسان قومه ، وهذا هو الأصل الذى تقتضيه طبيعة الفن فى الحياة ، إذ تندب لتمثيل الجماعة وجدانيًا أرهف أفرادها حسًا وأقدرهم على التعبير ؟

لماذا لا نقول إن سلطان القبيلة على أفرادها لا يلغى ذاتية أى فرد منهم وإنما يجعلها فردية جماعية ، لا فردية متوحشة لا تعرفها الحياة فى مجتمع ؟ إن القبيلة كما كانت تلزم الفرد أن يندمج فيها ، كانت هى — من ناحية أخرى — تلتزم مجتمعةً بهذا الفرد وتهب لنجدته إذا مسه ضيم ، وقد تدخل الحرب من أجل فرد منها ناله أذى ، ولعلها لا تسأله أن يقيم الدليل على دعواه :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات ، على ما كان برهانا

فنحن هنا أمام ذاتية جماعية تندمج فيها الفردية فى الجماعية إلى حد يصعب فيه الفصل بينهما . ولسنا نحن الذين نبتدع هذا الشعور بالذاتية الجماعية ونضيفها إلى شاعر القبيلة . فلقد كان هذا الشاعر يحسها أصدق إحساس ويعيها أتم الوعى ، فيقول « حريث بن محفض المازنى »[1] :

ألم تر قومى إن دعـاهم أخوهمُ ... أجابوا ، وإن يغضب على القوم يغضبوا

هم حفظوا غيبى[2] كما كنت حافظاً ... لقومىَ أخرى مثلَها إن تغيبوا

---

(١) شاعر جاهلى إسلامى ، وضعه ابن سلام فى الطبقة العاشرة من الجاهليين وأورد هذا النص من أشعاره فى الجاهلية . طبقات الشعراء ص ٤٥ ط بريل .

(٢) فى ط بريل : [عينى] — تحريف يسئ السياق .

بنو المجد لم تقعد بهم أمهاتُهم وآباؤهم آباء صدقٍ فأنجبوا !

وإدراكنا لهذا الموقف ، يلفتنا إلى ظواهر فنية فى الشعر الجاهلى ، قلماً التفت إليها النقاد من قبل .

من تلك الظواهر :

(١) أن شاعر القبيلة قلما يتحدث بضمير المفرد إذا افتخر ، وإنما يتحدث بضمير الجماعة التى يمثلها ويعتز بانتمائه إليها ، ويرى مجده من مجدها وعزته فى عزتها .

ترى هذه الظاهرة بوضوح فى شعر « عمرو بن كلثوم » شاعر تغلب و « الحارث ابن حلزة » شاعر بكر ، و « لبيد بن ربيعة » شاعر عامر ، وأضراب لهم ممن شرفوا بالحديث عن الجماعة ، وإذا قرأت معلقات عمرو والحارث ولبيد ، ندر أن تعثر فيها على ضمير المفرد ، مما يشهد باندماج فردية الشاعر فى جماعته ، ويؤكد إدراك الشاعر لوظيفته وفهمه لرسالته .

وهم[1] يقولون إن « ابن كلثوم » قالى معلقته غضباً لأمه ، ويرتاب المرتابون فى حكاية أمه هذه مع أم عمرو بن هند ، ويحسبونها من إضافات السمار ومنحولات الرواة ، ولست أريد أن أجادلهم فى هذا ، ولكنى أقول إن الحكاية — على أى وضع رضيناه لها — لا تفقد دلالتها الصادقة الأمينة على وضع اجتماعى سائد ، وفكرة عامة مسيطرة .

وكان الظن ، والحادثة فردية ، ان يتكلم عمرو عنها بصفته الشخصية . لكن المعلقة مضت وليس فيها ما يشعر بأن « عمرا » نظر إلى الحادثة نظرة فردية . وذلك لأن الوضع الاجتماعى كان يجعل الفرد للقبيلة والقبيلة للفرد ، فالمساس بكرامة « أم عمرو » مساس ببنى تغلب جميعاً ، وغضبة « عمرو » هى غضبة قومه ، وكل ما يعتز به الشاعر من أمجاد مستمد من عزة قومه وأمجادهم .

وهنا قد يبدو لسائل أن يسأل : إذا كان شاعر القبيلة يتكلم بلسان الجماعة ، ويغلب عليه التحدث بضميرها : نحن ، وإنا ، وكنا ... فما بال « عنترة » شاعر

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ / ١٨ .

عبس ، قد تحدث بضمير المفرد ، وباهى بفروسيته وكرمه وعفته لا بأمجاد قومه ؟ والجواب عن هذا ، أن « عنترة » كان فى وضع خاص اضطره إلى أن يزكى نفسه لدى أبيه الذى لم يلحقه بنسبه لأنه ابن أمة غير عربية ، ولدى « عبلة » التى ما كانت لترضى بالزواج من «ابن زبيبة» ، ولدى قبيلته التى نبذته مع أبناء الإماء :

هلا سألتِ الخيل يا ابنة مالك ... إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
ينبئك من شهد الوقيعة أنى ... أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنم
ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل الرماح لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم

فالفخر الخاص فى شعر « عنترة » له مبررات دفعت الشاعر إلى الخروج على مألوف شعراء القبائل ، فى فخرهم العام .

(ب) والاعتذار فن غير شائع عند شعراء القبائل ؛ لأن الشاعر إذا أخطأ التزمت القبيلة كلها بخطئه فلم تلجئه إلى أن يقف موقف المعتذر الذليل . وقلما يبالى شاعر القبيلة وشايةً يسعى بها واشٍ لدى ذى جاه أو سلطان ، أو يروعه غضبُ غاضبٍ مَن كان ؛ لأن القبيلة كلها من ورائه ، تحميه وتنصره وتؤازره ، ومن هنا لم يكن ثَم مجال للاعتذار بل يقول ما قال عمرو بن كلثوم :

بأىِّ مشيئةٍ عمرَو بنَ هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
فإن قناتنا يا عمرو أعيت ... على الأعداء قبلك أن تلينا
إذا ما المَلْكُ سام الناسَ خسفاً ... أبينا أن نقر الذل فينا
وأيامٍ لنا غُرٍّ طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا
ألا لا يجهلنْ أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أو ما قال « الحارث بن حلزة » :

أيها الناطق المرقش عنا ... عند عمرو ، وهل لذاك بقاء
لا تَخَلْنا على غِراتك إنا ... قبلُ ما قد وشى بنا الأعداء
فبقينا على الشناءة تنمينا جدود وعزة قعساء

(ج) والمدح عند شاعر القبيلة لا يصدر عن انفعال بمعروف أسداه الممدوح إلى الشاعر فرداً ، إنما ينفعل فيه الشاعر بفضل أسداه الممدوح إلى قومه . و « زهير بن أبى سلمى » يقدم لنا المثل المختار لشاعر القبيلة حين يمدح ، تأثراً بمكرمة عامة . لقد كان « هرم بن سنان » يجزل له العطاء فيتحاشى أن يحييه فى قومه تحرجا من بره الشخصى ، ويقول للقوم وهرم فيهم : « عموا صباحاً إلا هرماً وخيركم استثنيت » .

ولكن مكرمة « هرم بن سنان ، والحارث بن عوف » هزته ، حين تحمّلا الدياتِ من قتلى عبس وذبيان ، ليضعا حداً للحرب التى كادت تفنيهما . فيقول « زهير » :

سعى ساعياً «غيظِ بن مرة» بعد ما ... تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنَوه من قريش وجرهم
يمينـا لنعم السيدان وُجِـدتما ... على كل حالٍ من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيـان بعدما ... تفـانَوا ودقـوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما : إن ندرك السلم واسعاً ... بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا مَعَدٍّ هُدِيتما ... ومن يستبح كنزا من المجد يغنم
ومن يك ذا فضلٍ فيبخل بفضله ... على قومه يُستغنَ عنه ويُذمم!

* * *

ولم يَحُلْ وضع الشاعر فى قبيلته بينه وبين القول فى فنون من الشعر ذاتية خالصة، كالغزل فى أحبابه والوقوف بديارهم، ورثاء فقيد من أهله وأحبابه ، وهجاء خصومه وأعدائه .

وهنا تعرض شبهة خيّلت لِدارسين منا أن شاعر القبيلة لم يجد نفسه ويحقق ذاتيته إلا فى الغزل والرثاء والهجاء ، لكونها متصلة بطبيعتها بالوجدان الفردى .

ونقول إن القيمة الهامة لهذه الفنون الذاتية ترتهن بالمشاركة العامة التى يعبر فيها الشاعر عن مواجد وأشواق وعواطف يعانيها سائر قومه، على اختلافٍ فى عمق

المعاناة والقدرة على التعبير عنها .

وكان شاعر القبيلة يصدر عن ذاتية جماعية فى هذه الفنون : فأوجع الهجاء ما صرف الذمّ عن المهجو فرداً إلى عشيرته كلها ؛ وأكثر الراحلين حظًّا من احتفال الراثين ، هم من كانوا للقبيلة سنداً وعماداً ، ومراثى الجاهلية لا تمل البكاء على حامى الحمى وملاذ العشيرة ومأوى الأرامل واليتامى.. ونملُّ نحن هذا الأسلوب ، غير ملتفتين إلى ذاتية الشاعر الجماعية التى جعلت من فجيعته الخاصة فجيعة عامة مشتركة ، يكابدها وتكابدها معه عشيرة فقدت سيداً .

وحين ننظر فى الغزل الجاهلى ، ولتكن نظرتنا عند موقف بعينه ، هو الوقوف بأطلال دور الأحبة الذى كان دأب الشاعر العربى من قديم الدهور وغابر الأحقاب . نرى الشاعر منهم قد ينفرد بالوقوف على أماكن معينة : فيقف « امرؤ القيس » بسقط اللوى بين الدخول فحومل ، ويقف « طرفة » ببرقة ثهمد ، ويقف «زهير» بحومانة الدراج أو المتثلم أو الرقمتين ، ويقف « لبيد » بمنى أو مدافع الريان ، ويقف «الحارث بن حلزة» ببرقة شماء أو المحياة والصفاح . .

لكنهم على اختلاف الأماكن يعبرون عن موقف جماعى اقتضته طبيعة البيئة التى عاشوا فيها ، ويصدرون عن ذاتية متأثرة بوضع القبيلة فى حلها وترحالها ، خاضعة لاحتكام هذا الوضع فى مصير الحب ، فما كان لشاعر أن ينسلخ من قومه ليتبع حبيبة رحل أهلها ، وإنما كل ما يملكه هو أن يُتْبِعَها بصرَه ويرصد حركات التحمل السريع والارتحال المباغت ، حتى إذا غابت عن ناظريه تلفت القلب ، وانثنى الشاعر إلى الربع المهجور ، متشبثًا بمسرح ذكرياته متعلقًا بآثار الأحباب ، وقد بعدت الديار وشط المزار .

فالقيمة الهامة لهذه الظاهرة الأصيلة فى الشعر الجاهلى ولغيرها من فنون ذاتية خاصة ، لا تكون بتجريدها من طابع المجتمع وحصرها فى نطاق الذات الفردية ، بل فى أن تكون ذات دلالة جماعية مشتركة : فالشاعر هنا يبكى الديار لكل من كابد فراق الأحبة ، ويتغنى بليلاه فيجد فيها المحبون سمات حبيباتهم وكلهن ليلى . والراثى يعبر عن مأساة عامة يتعرض لها كل حى ، ويستثير شجنه أشجان الجماعة . لكنا لم نلتفت إلى قيمة هذه الفنون الشعرية الخاصة من حيث هى معبرة عن

موقف مشترك . ينفرد الشاعر بالتعبير عنه وإن لم ينفرد بمعاناته .

(ه) ومن أجل هذا كانت القبيلة تعد شعر شعرائها ملكًا عامًّا لها ، وتراثًا قوميًّا لأبنائها . وهو ما يفسر لنا الظاهرة اللافتة فى رواية الشعر الجاهلى حيث يكتفى الرواة أحيانًا كثيرة بنسبة الشعر إلى القبيلة التى ينتمى إليها الشاعر فيقال : قال الهذلى ، وقال الطائى . وقال العذرى ، وقال أخو بكر . . .

كما يُفسر لنا اتجاه حركة الجمع والتدوين للشعر الجاهلى ، فى مراحلها المبكرة ، إلى جمع دواوين شعر القبائل . لكل قبيلة ديوانها الخاص الذى ينقله الرواة من أبنائها ، على نحو ما ترى فى ديوان شعر الهذليين .

* * *

على أن فهمنا لهذه الذاتية الجماعية ، لن يتم إلا إذا نظرنا فى شعر بيئتين أخريين من بيئات الشعر الجاهلى ، خرج فيهما الشاعر على سلطان القبيلة ، وبدا لبعض الدارسين والنقاد أنه بهذا التحرر قد وجد نفسه واسترد ذاتيته ، وأخلص لفنه .

وأولاهما : بيئة الشعراء الصعاليك .

والثانية : بيئة شعراء الملوك والأمراء فى بلاط المناذرة والغساسنة .

فلننظر فى شعر كل بيئة من هاتين ، لنرى هل يصدق ما زعمه النقاد من جَوْرِ الجماعية على ذاتية الشاعر ؟

الشعراء الصعاليك

أهدر ابن سلام الاعتراف بهم فى طبقاته.
ويقول تراثنا : إن شعرهم يمثل الفطرة العربية
ويعبر عن معاناة وجدانية لمحنة الغربة والتشرد،
ويعكس صورة مثيرة من واقع حياتهم
المحرومة من أنس الجماعة .

obeikandl.com

obeikandl.com

الشعراء الصعاليك :

هم أولئك الذين حاولوا فعلاً أن يتحرروا من سلطان قبائلهم . وخُلعوا منها راضين أو كارهين . وقد ألفنا فى دراسة شعرهم أن نراه ممثلاً لانطلاق ذاتية الشاعر ، مسجلاً صدى نضاله عن هذه الذاتية . ومظهر تحررٍ من القيود التى تكبلها .

وفاتنا — أو فات كثيراً منا — أن نلمح وراء هذا الذى يبدو فى ظاهره انطلاقًا وتحرراً ، تلك الروابط النفسية التى كانت تشدهم إلى الأهل والعشيرة ، وأن نحس تلك المرارة التى تفيض بها مشاعرهم وهم يهيمون على وجوههم فى الفلوات ؛ أحراراً فيما يبدو . مشردين غرباء فى الواقع .

فاتنا أن نلتفت إلى ما ترك الخلع فى وجدانهم من أثر عميق نافذ ، سجلته أشعارهم المشحونة بأشجان الغربة ووطأة الوحدة النفسية وقسوة الحرمان من أُنْسِ الأهل والدار . بل إن سلوكهم نفسه كان يطوى وراء الاستهانة بالحياة والانطلاق فى الفضاء العريض والمغامرة الفتاكة المثيرة ، سخرية مريرة بالحرية الفردية ، وشعوراً عميقًا بالتمزق والتشرد والضياع .

وتراثهم من الشعر شاهد لدينا على هذا ، مشحون بالأسى والشجن .

فمن وراء بضعة عشر قرنًا ، نصغى إلى صدى باقٍ من قول « تأبط شرًا » :

يا عيدُ مالك من شوق وإيراق ... ومَرِّ طيفٍ على الأهوال طرَّاق
يسرى على الأيْنِ والحيّات محتفياً ... نفسى فداؤك من سارٍ على ساق

. . . . . .

عاذلتى ، إن بعض اللوم معنفة ... وهل متاعٌ وإن أبقيتــه باقِ
إنى زعيم لئن لم تتركوا عــذَلى ... أن يسألَ الحىَّ عنى أهلَ آفاق
أن يسأل الحى عنى أهلَ معرفة ... فلا يخبرهمُ عن « ثابت » لاق
لتَقرعِنَّ علىَّ السنَّ من ندمٍ ... إذا تذكرت يومًا بعض أخلاقى (١)

(١) المفضل الضبى : المفضليات ١ / ٣ ط التجارية . ولها قصة فى خزانة الأدب للبغدادى ٢ / ١٦

أو قوله[١] :

قليـــل التشكى للمهمّ يصيبه ... كثير الهوى شتّى النوى والمسالك
يظـــل بموماة ويمسى بغـــيرها ... جحيشا ويعرورى ظهور المهالكِ
إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالىً من قلبِ شيحانَ فاتك
يرى الوحشة الأنسَ الأنيس ويهتدى ... بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

فيلقانا منه فى النص الأول ، شاعرينٌ من معاناة شوق يعتاده وسهد يؤرقه ، ومعاودة طيف ، فداؤه النفس ، يطرقه ليلا ساريًا على الأهوال ، معيداً له رؤى الأمس الذى ولّى وراح ، ونازعًا به إلى ماضيه — والشمل فيه مجتمع — فيعزى نفسه ، تحت وطأة المعاناة ، بأن كل حى إلى فناء ، وكل متاع إلى زوال . ويهتف بعاذلته ، ولعلها القبيلة ، أن تخفف من عنف لومها . ويندرها بما سوف تجرع من غصص الندم ، لو فقدت بفقده كريم الخلق أبى النفس ، لم يحتمل الزجر والتأنيب ، فمضى بعيداً إلى حيث لا يهتدى إليه عرّاف ؛ ولا ينبئ عن مكانه إنسان .

ويلقانا منه فى النص الثانى ؛ غريبٌ وحيد قليل التشكى لأنه لا يجد من يفضى إليه بشكواه ؛ مشرد : يظل بموماة ويمسى بغيرها ؛ مغامر فتاك ، يركب ظهور المهالك دون ملطف ؛ مسهد ؛ إذا أخذته سِنة من الكرى حاصت عينيه ؛ بقى قلبه الجسور يقظًا يحرسه ؛ متوحش ، نفور من الناس يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى فى مسراه المرهوب بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك .

ونصغى معه إلى صدى من صوت « الشنفرى الأزدى » إذ يقول[٢] :

ألا أمَّ عمرو أجمعت فاستقلتِ ... وما ودعتْ جيرانَها إذ تولّتِ
بعينىَ ما أمست ، فباتت ، فأصبحت ... فقضّت أموراً ؛ واستقلت فولت
أمشّى على الأرض التى لن تضرنى ... لأنكى قومًا أو أصادف حُمّتى
إذا ما أتتنى ميتتى لم أبـــالهـــا ... ولم تَدْرِ عماتى الدموعَ وخالتى

---

(١) الأمالى للقالى : ٢/١٣٨ ط دار الكتب — والقصيدة من مختارات المستشرق « ليال » من شعر تأبط شرا ، فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية .

(٢) المفضليات : ٤١ ط التجارية .

أو قوله :

ولا تقـــبرونى إن قـــبرى محرم عليكم ،ولكن أبشرى أمَّ عامر
إذا احتملوا رأسى ، وفى الرأس أكثرى وغودر عند الملتقى ثمَّ سائرى
هنالك لا أرجـــو حياة تسرنى سجيس الليالى مُبسَلاً بالجرائر

أو قوله[1] :

وإلف هموم ما تزال تعوده عياداً كحُمَّى الربع أوهى أثقل

فيلقانا منه شاعر مستهين بالحياة ، يضرب فى الأرض الواسعة لا يبالى أين ومتى تأتيه منيته .

وفيم المبالاة ولن تذرف عليه الدمع عمة أو خالة ، وماذا يعنيه من قبر لا يزار ؟ شاعر شريد ، إلفُ هموم ما تزال تعوده كالحمى أو هى أثقل ، كلما ذادها عنه ثابت إليه . وأتته من فوقه ومن تحته !

* * *

عند هؤلاء ، لم يكن الشعر تجارة قط ، وإنما كان متنفساً لشجنهم ، وراحة لقلوبهم المضناة بالغربة ، وتعبيراً عن وجدان مثقل بالهموم ، وصدى لمغامراتهم المستهينة بحياة مضيَّعة ، تنتهى بموتٍ فى متاهة الفلاة بعيداً عن الأهل والأحباب .

ولو شاءوا أن يتجروا بشعرهم لوجدوا لبضاعتهم مشترين . ولكن فطرتهم العربية الحرة ، أبت عليهم أن يرضوا بهوان المساومة على ألسنتهم ووجدانهم فى سوق البيع والشراء ،وأن ينزلوا عن حريتهم التى لم تحتمل ضغط عُرف الأهل وتقاليد العشيرة ، والتى اشتروها بغالى الثمن ، من غربة وحرمان وتشرد وضياع .

فأين عند من رأوا الشعر تجارة ، موضعُ قصيدة الشنفرى[2] :

---

(١) هبة الله العلوى : ديوان مختارات شعراء العرب — ٢٥ .

(٢) اقرأ القصيدة كاملة ، فى (ديوان مختارات شعراء العرب) لهبة الله العلوى ص ٣١ ط ٢٨ العامرة .

وقد نشر الزميل العراق ،الدكتور محمد بديع شريف ، نص قصيدة الشنفرى محققاً ،مع دراسة لها وافية فى كتابه: « نشيد الصحراء ، أو لامية العرب » .

أقيموا بنى أمى صدورَ مطيّكم ... فإنى إلى أهلٍ سواكمْ لأميلُ
فقد حُمت الحاجاتُ والليل مقمر ... وشُدت لطيّاتٍ ، مطايا وأرحُل
وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خافَ القِلى مُتحوَّل
أديم مطالَ الجوع حتى أميته ... وأصرف عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستفُّ ترب الأرض كى لا يرى له ... علىَّ من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب ... يعاش به ، إلا لدىّ ، ومأكل
ولـكنَّ نفساً حرة لا تقيم بى ... على الضيم إلا ريثما أتحول
شكا وشكت ثم ارعوى بعدوارعوت ... وللصبر إن ينفع الشكْوُ أجمل

لم يجد « ابن سلام » مكاناً فى طبقاته ، للشنفرى ، ولا لغير الشنفرى ، من هؤلاء الذين يمثل شعرهم نقاء الفطرة العربية ، وهيامها بالحرية ، ويعبر عن معاناة وجدانية ؛ ويعكس صورة أمينة لواقع حياتهم فى صميم الجزيرة .

obeikandl.com

شعراء البلاط

وضع النقاد « النابغة والأعشى » فى الطبقة الأولى لفحول الشعراء واحتفلوا ببضاعتهما ، وبضاعة أمثالهما من المتكسبين بالشعر . ويقول تراثنا : إن وضعهم ، أجراء مسخرين ، أهدر ذاتيتهم وصادر حريتهم الفنية وألغى كرامتهم التى لابد منها لكل أديب حر

obeikandl.com

obeikandl.com

وندع الشعراء الصعاليك فى غربتهم وتشردهم وتوزعهم العاطفى ووحدتهم النفسية ، وتهاونهم بالحياة المبعَدة عن الأهل والأحباب ، لننظر فى بيئة أخرى لشعراءَ من الجاهلية تحرروا كذلك من قيود القبيلة باختيارهم ، ومارسوا صنعتهم لحسابهم الخاص مستقلين عن الجماعة ، لدى الأمراء من آل المنذر وآل غسان . فأين كان موضع هؤلاء الشعراء وماذا كانت وظيفتهم ؟ وهل وجدوا ذواتهم بهذا الاستقلال عن القبيلة ؟

وإمارتا الغساسنة والمناذرة قامتا على أطراف الجزيرة ، مما يلى حدود الروم والفرس ؛ وكانت الإمارتان تستظلان بالحماية الأجنبية ، نظير قيامهما بحراسة الحدود من غارات العرب ، والتأمين التجارى لبضاعة الدولتين الحاميتين . وقد اقتضى هذا الوضع ، تأثر المجتمع العربى فى الإمارتين كلتيهما ، بالأوضاع السائدة فى بلاد الفرس والروم ، وكان بلاط الأمراء فى الحيرة وغسان ، يحاول أن يتشبه ببلاط الأكاسرة والأباطرة .

واحتاج الأمراء إلى الشعراء ، دعاةً ومؤيدين . وفعلت جاذبية السلطان فعلها ، فأغرت عدداً من الشعراء بالنزوح إلى القصر ، لا عن إيمان بالوضع ، ولا عن استجابة لحاجة عامة إلى تأييده ، ولكن طلباً للمال والعطاء وترف العيش .

وكان الشعر بضاعتهم . والقبيلة لا تدفع لشاعرها ثمناً غيرَ شرف السيادة والقيادة . أما أمراء الحيرة وغسان ، فيدفعون المال بغير حساب . .

وفى هؤلاء تصدق القولة القديمة «الشعر تجارة العرب» [1] وكانت تجارة رابحة جعلت مثل « النابغة » يأكل ويشرب فى صحاف الذهب والفضة وأوانيهما — كما يقال — وجعلت « الأعشى » يحمل بضاعته ويسير بها فى الآفاق متجراً ، لا يبالى من يعرضها عليه [2] ؛ حتى بلغ به الأمر أن عرضها على أعجمى لا يفقه من العربية شيئاً . وحكايته مع «كسرى» معروفة ، يوم سعى إليه منشداً قصيدته :

أرِقتُ وما هـــذا السهاد المــؤرق وما بىَ من شوق وما بى تحرقُ

---

(١) ابن رشيق : العمدة ١/٣١ . (٢) ابن رشيق : العمدة ١ / ٤٩ .

فلما ترجموا لكسرى ، أنه ذكر أرقه من غير سقم ولا عشق ، قال ما ترجمتُه : إذا كان سهر من غير سقم ولا عشق فهو لص [١] !

فإلام صار الشعر المرتزق وأهله ؟

الواقع الذى يسجله تراثهم الأدبى ، أن الشاعر منهم إذا كان قد تخلص من تبعيته للقبيلة ، وتخلى عن مهمة التعبير عنها وشرف الكلام باسمها ، فإنه ارتبط بتبعية أخرى قاسية باهظة ، وانتقل إلى بيئة مغايرة لمجتمع القبيلة من حيث نظرتها إلى الشاعر وفهمها لوظيفة الشعر .

إنه فى هذه البيئة تابع للأمير وفرد فى حاشيته ، له وظيفته المحددة التى تفرض عليه تمجيد أفعال سيده والتغنى بسجاياه وتقديس كل تصرفاته ، والارتفاع به إلى سماء لا تطاولها سماء :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا ارتفعت لم يبد منهن كوكب

* * *

وأنت ربيع ينعش الناسَ سيبُه وسيفٌ أُعيرتْه المنيــةُ قاطع

وقلما يصدر الشاعر فى مدحه عن إيمان خالص بالممدوح ، وإعجاب صادق به . أو ، إن كان ، فهو إعجابٌ بما يناله من بر الأمير وعطائه ، فبقدر ما يسخو فى العطاء ، يسخو الشاعر فى المدح متأثراً بهذه المنحة الفردية ، لا بمكرمة عامة كتلك التى تهز شاعر القبيلة وتستثير أريحيته الفنية .

و « النابغة الذبيانى » يمثل لنا هذا الصنف من الشعراء أصدق تمثيل ، وشعره فى « النعمان بن المنذر » جدير بأن يفصل فى قضية « ذاتية الفن » التى زعم زاعمون أنها أُهدِرت فى القبيلة ، وجدير كذلك بأن يجلو لنا الفرق البعيد بين وظيفة الشعر فى المجتمع العربى الأصيل : قيادةً وسيادة ؛ ووظيفته حرفةً وارتزاقًا ودعاية ، فى بيئة الأمراء من الغساسنة والمناذرة المتأثرة سياسيًّا واجتماعيًّا بتيارات أجنبية وافدة من بلاد الروم والفرس .

ومدائح النابغة فى النعمان صريحة الدلالة على انفعاله به بقدر ماسخا فى عطائه [٢] :

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ / ٢٥٨ ط المعارف .

(٢) انظر القصائد فى ديوان النابغة ، وأكثرها فى المختار من شعره فى كتب الأدب .

وإن تـــلادى إن ذكرتُ وشكَّتى ومهرى ، وما ضَمَّت إلىّ الأنامل
حبـــاؤك ، والعِيس العتـــاق كأنها هجانُ المهى ، تُحدَى عليها الرحائل
فإن تَحيَ لا أملل حياتى وإن تمُت فما فى حيـــاةٍ بعد موتِكَ طائل

* * *

فلن أذكر النعمـــان إلا بصالح فـــإن لـــه عنـــدى يَديـــاً وأنعما

* * *

وبينا نجد للشاعر فى القبيلة أعز مكانة، ونراها تحتفل بظهوره وتعده ثروة قومية لها ، نجد الشاعر فى البلاط لا يعدو أن يكون تابعًا أجيراً . وربما عانى من الخضوع والهوان ما يهدر إنسانيته إلى حد الإقرار بالعبودية . فهذا النابغة على وقار سنه ومقدرته الشعرية التى كانت جديرة بأن تجعله سيداً شريفًا مهيبًا ، غضب عليه سيده النعمان فتضيق الدنيا على سعتها فى وجهه ، ولا يجد مفرًّا منه إلا إليه ، ولا حيلة معه إلا أن يعتذر إليه فى ذلة وضراعة ، ليمُنَّ عليه بالحياة ويرحمه من محنة النبذ والضياع :

أغـــيرَك معقـــلا أبغى وحصناً وأعيتْنى المعـــاقل والحصون
وجئتك عاريـــاً خلِقـــاً ثيابى على خـــوفٍ تُظن بى الظنون

* * *

فـــلا تتركنى بالوعيـــد كأننى إلى الناس **مطلىٌّ به القار أجرب**
فإن أك مظلومًا **فعبد ظلمتَه** وإن تك ذا عُتبَى فمثلك يعتب

* * *

فإن كنت لاذوالضغن عنى مُكذَّبٌ ولا حـــلفى على البراءة نافـــع
ولا أنا مأمون بشىء أقـــوله وأنت بأمر لا محالة واقـــع
فإنك كاالليل الذى هو مدركى وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسع
أتوعِـــدُ **عبداً** لم يخنك أمانة ويُترَك عبـــدٌ ظالم وهو ظالع

* * *

فإن كنتَ امرأً قد سؤتَ ظنـــا **بعبدك** والخطوب إلى تَبالِ

فأرسل فى بنى ذبيـــان فاسأل ولا تعجـــل إلىّ عن السؤال
فما أغفلت شكرك فانتصحنى وكيف ومن عطائك جُلُّ مالى
ولو كَفَّىَ اليمين بغتّك خـــونا لأفردتُ اليمين عن الشمال

وهم يقولون فى سبب غضب النعمان على شاعره الأجير ، أنه خانه فمدح بنى غسان الذين ينافسون المناذرة على الجاه والإمارة .

وانتهز حساد « النابغة » هذه الفرصة ، فوشوا به لدى « النعمان » وأوغروا صدره عليه . وفى اعتذاريات « النابغة » ما يؤيد هذا ، حيث يقول فى قصيدته البائية :

أتانى أبيتَ اللعن أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب
فبتُّ كأن العائدات فرشْنَ لى هَراساً به يُعلى فراشى ويُقشب
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبـــةً وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بُلغتَ عنى وشايةً لمُبلغُك الواشى أغشُّ وأكذب
ولكننى كنت امرأ لىَ جانب من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وإخـــوان إذا ما أتيتُهم أُحكَّمُ فى أموالهم وأُقرَّب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتَهم فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبـــوا
فـــلا تتركنى بالوعيـــد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب

وهكذا يخضع الشاعر فى البلاط ، لمصادرة وجدانية باهظة العبء .

فحين تتصل أسبابه بالأمير ، لا يعود يملك شيئاً من أمر نفسه التى باعها لسيده ، وليس من حقه أن يتصرف فى بضاعته إلا بما يرضى هذا السيد . وما نرى « النعمان » إلا على حق ، حين أنكر على النابغة أن يمدح الغساسنة أو سواهم بعد أن باع نفسه وفنه لسيده وقبض ثمن البضاعة !

ولم يكن النابغة يمدح النعمان منفعلاً بكريم سجاياه ، بل كان انفعاله بسخى عطاياه . وهم يروون للنابغة هجاء مقذعاً فيه ، حين اتصلت أسبابه بالغساسنة[1].

* * *

هكذا نرى أن ذاتية الشاعر ، لا يهدرها اندماجه فى القبيلة ، ولا تخضع لمصادرة وجدانية حين يحظى بشرف التعبير عن قومه ، وإنما يهدرها حقاً أن ينسلخ من الجماعة ، ويبيع كرامته ولسانه لفرد يدفع الثمن ، ويستعبر وجدان مالكه ليقول ما يرضيه . فيغضب معه ويرضى . . .

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ١ / ١٦٠ .

والآن نعرض تراثنا ، بعد فهمه فهماً محرراً ، على المقاييس النقدية والقيم الأدبية التى وضعها للشعر الجاهلى قدامى النقاد ممن تلقوا هذا التراث وتذوقوه بمزاج بيئاتهم ، وقوموه بموازين عصورهم .

فماذا نرى ؟

(ا) لقد احتفوا أيما احتفال ببضاعة المرتزقة من الشعراء ، وحرصوا أشد الحرص على رواية الشعر الذى قيل فى بلاط المناذرة والغساسنة . ولم يكتفوا بأن يجعلوا « المدح » أهم أغراض الشعر ، بل زادوا فجعلوا المدح غاية القصيدة العربية بوجه عام ، فينقل « ابن قتيبة » مذهب أصحاب عمود الشعر الجاهلى :

« إن مُقصِّد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين . . ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق ، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب . وليستدعى إصغاء الأسماع . . .

« فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له ، عقّب بإيجاب الحقوق ، فرحل فى شعره وشكا النصب والسهر ، وسُرى الليل وحرّ الهجير ، وإنضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه أ جب على صاحبه حق الرجاء والتأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره فى المسير ، بدأ فى المديح فبعثه على المكافأة ، وهزه للسماح ، وفضّله على الأشباه ، وصغّر فى قدره الجزيلَ » (١) .

ثم عقب « ابن قتيبة » على هذا بقوله : « فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر » (١) .

ويشهد تراثنا أن المدح لم يكن غاية القصيدة وعمودها ، إلا عند المتكسبين بالشعر : فطرفة وقف بأطلال خولة ، وبكى ووصف راحلته ، ثم لم يتخذ هذا كله حيلة للعطاء ، ولم يقصد به إلى هز ممدوح للسماح وبعثه على المكافأة . وكذلك فعل الحارث بن حلزة ، وقف بالأطلال وبكى إيذان « أسماء » بالبين ، ثم

---

(١) الشعر والشعراء : ١ / ٧٥ ط المعارف .

انطلق يعرض قضية قومه ، ويفاخر بأمجادها ، وينذر « ابن هند » بغضبها إن جار فى حكمه بينها وبين تغلب !

وعمرو بن كلثوم ، أين وكيف ، مدح وهزّ للسماح ؟

بل أين ديوان شعراءالقبائل ، من هذا العمود الذى قرره القوم للقصيدة العربية ؟

واليوم نقرأ فى الكتب المدرسية هذا النسق المقرر للقصيدة العربية فى الجاهلية ، ونكرره مقلدين دون أن نلتفت إلى تراثنا !

ولم يجهل النقاد من السلف أن المجتمع العربى الحركان يأنف من التكسب بالشعر ويُسقط من يجعل الشعر متجراً[١] لكنهم فى حديثهم عن « التكسب بالشعر والأنفة منه » قرروا أن مدح الملوك مفخرة . وأن الذل لهم معفو وأن عطاءهم شرف . وإنما العار « أن يأخذ الشاعر ممن دون الملوك . كما فعل الحطيئة قبح الله همته الساقطة »[٢] .

وهو حكم نقدى أخذوه من إمارتى الحيرة وغسان . وتقليد سبق إليه « النابغة » فى قوله :

تخب إلى النعمان حتى تنـــاله ... فدًى لك من ربٍّ طريفى وتالدى

وكنتُ امرأ لا أمدح الدهرَ سوقةً ... فلستُ على خيرٍ أتاك بحاسد

وقد أخذها عليه النقاد ، لا لكونه آثر النعمان بمدحه، والمجتمع العربى يريد لشاعره أن يمدح عشيرته ويفخر بأمجادها ، ولا لأنه جعل النعمان « ربا » وكل من عداه سوقة . ولكن « لأنه امتن على رَبِّه الملك بمدحه . جعل هذا المدح خيراً سيق إليه ؛ لا يحسده عليه»[٣] .

وليس لشاعر عندهم أن يمتن على الملك بمدحه ، وإنما قصاراه أن يعتز بمدح الملوك ويفخر ، طبقًا لقواعد قرروها فيما يجوز للشاعر أن يمدح به الملك ، ووضعوا لها النماذج المختارة[٤] .

ونوهوا — فى باب التكسب بالشعر والأنفة منه — بمن سار على التقليد الذى سبق إليه « النابغة » فى الافتخار بشرف مدح الملوك ، والأنفة من المدح

---

(١) ابن رشيق : العمدة ١/١٢١ .
(٢) ابن رشيق : العمدة ١/٥١ .
(٣) الشعر والشعراء : ١/٥٢ .
(٤) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ص٢٣ .

إلا «لصاحب منبر وسرير» والمباهاة بأخذ العطاء «من كفّ خليفة ووزير»[١]

(ب) وقرروا أن الطمع أقوى مثيرات الشعر ودوافعه[٢]، ثم لما نظروا فى تراث العربية من الشعر الجاهلى ، لم يجدوا فى « المرثية » مثلاً وهى تشغل مكاناً هاماً فى تراثنا ، مصداق قولتهم فى الطمع ، وإذ ذاك حكموا بأن «الرثاء أصعب الشعر لأنه لا يصدر عن رغبة أو رهبة» [٣] .

ولم يلتفتوا فى الرثاء إلى غير الأبيات التى تذكر سجايا الفقيد . فأدخلوا الرثاء فى المدح ! لا فرق بينهما عندهم إلا فى«أن المدح فى الأحياء والرثاء مدح للموتى ! »

وما تزال هذه القيمة فى جونا الأدبى ، لا أذكر أن دارساً حاول تغييرها والكشف عما فيها من خطأ فنى كبير ؟

وكان تراث الصعاليك بين أيديهم ، فلما لم ينطبق عليه مقياسهم ، أهدر « ابن سلام » الاعتراف بهم ، وما نزال نحن نخضع لذلك الاحتكام فنحتفل باعتذاريات النابغة ، ونلقن أبناءنا قصيدة الأعشى التى قالها فى « المحلق » نظير أكلة دسمة ! ولم نستبدل بهذه القصيدة لاميةَ العرب للشنفرى مثلا ، أو عينية « لقيط بن يعمر الإيادى» .

(جـ) وتوجوا « النابغة الذبيانى » أميراً للشعر الجاهلى إذا اعتذر ، وما يزال هذا موضعه فينا لم يتغير ، وإنهم لينقلون إلينا ما يشهد بأن عرب الجاهلية الأصلاء كان لهم فى النابغة واعتذارياته رأى غير ذاك الرأى : أنكرت « بنو ذبيان » على الشاعر الشيخ أن يبيع كرامته وحريته للنعمان ، ورأت فى خشيته إياه عاراً أى عار ، فذلك حيث يقول النابغة :

وعيّرتنى « بنو ذبيان » خشيتَه وهل علىّ بأن أخشاكَ من عارِ ؟

وظلت الضعة تلاحق اسمه إلى ما بعد الجاهلية ، فيقال إن « ابن عباس » سأل « الحطيئة » : من أشعر الناس ؟ قال :

---

(١) ابن رشيق : العمدة ١/٥٢ . (٢) الشعر والشعراء : ١/٧٩

(٣) ابن رشيق : العمدة ١/٢/٢٥ وانظر(المرثية فى الشعر الجاهلى) للدارسة ، فى العدد الأول من حولية كلية البنات بجامعة عين شمس .

— من الماضين أم من الباقين ؟

قال ابن عباس : من الماضين .

فأجاب الحطيئة : « الذى يقول[١] :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يَفِـرْه ومن لا يتق الشتم يُشتَم

وما دونه الذى يقول[٢] :

ولست بمستبق أخاً لا تلمُّـه على شعَثٍ ، أى الرجال المهذب ؟

ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جرولا — يعنى نفسه — ! والله يا ابن عمّ رسول الله ، لولا الطمع والجشع لكنت أشعر الماضين » [٣] .

وبحكم الحطيئة على النابغـــة ، نفهم قول « ابن قتيبة » فيه : «وكان[٤] النابغة شريفاً فغضّ منه الشعر » .

ووضعوا « الأعشى » فى الطبقة الأولى لفحول الجاهليين ، وكان مما وضعوا فى كفة ميزانه ، حين قدموه على طرفة ، أن «الأعشى أمدَحُ وأهجَى »[٥] .

ولا أظنه تزحزح إلى اليوم عن موضعه ذاك فى (طبقات ابن سلام) على حين تأخر « عمرو بن كلثوم » شاعر تغلب ، و « الحارث بن حلزة » شاعر بكر ، إلى الطبقة السادسة ، فى ميزان النقد التجارى .

أما « طرفة » و « عبيد » فاستكثر عليهما « ابن سلام » مكانهما فى الطبقة الرابعة عنده ، خضوعاً لمقياس الكم لا الكيف ، بل إنه اتخذ من شهرتهما مع قلة شعرهما بأيدى الرواة ، دليلاً على ضياع شعر كثير . قال : « ومما يدل على ذهاب الشعر قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، والذى صح لهما قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهن ؛ فليس موضعهما حيث وُضعا من الشهرة والتقدمة »[٦] .

ولم يخطر بباله أن يكون للمستوى الفنى ما يشفع لطرفة وعبيد ، فى تلك الطبقة الرابعة !

---

(١) لزهير من معلقته .
(٢) للنابغة من بائيته فى الاعتذار .
(٣) العمدة : ١/٦٠ .
(٤) الشعر والشعراء : ١/١٦٤ .
(٥) طبقات الشعراء : ٢/٤ .
(٦) طبقات الشعراء : ١٠ ط بريل .

و « أبو عبيدة » لم يرضه أن يبقى « طرفة » فى الطبقة الرابعة ، بل أخّره إلى الطبقة السادسة مع عمرو بن كلثوم والحارث ! رغم اعترافه بأن « طرفة » أجود الشعراء واحدة . قال : « طرفة أجودهم واحدة ، ولا يلحق بالبحور . ولكنه يوضع مع أصحابه : الحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم ، وسويد بن أبى كاهل »[١] .

وإنما أخر طرفةَ عندهم : « قلةُ شعره ، وقصوره فى المدح والهجاء »[٢] .

وهو قصور لم يغتفره قوم رأوا الشعر تجارة ، وجعلوا المدح عمود القصيدة وغايتها .

ولم يكن هذا هو رأى أصحاب الفن القولى فى طرفة ، فلقد سئل « لبيد ابن ربيعة : من أشعر العرب ؟ فأجاب : الملك الضليل . قيل له : ثم من ؟ قال : ابن العشرين — يعنى طرفة »[٣] .

وأبو العلاء : أديب العربية الأكبر ، يقول لطرفة فى (رسالة الغفران) على لسان « ابن القارح » :

« ولو لم يكن لك أثر فى الدار العاجلة إلا قصيدتك التى على الدال لكنت أبقيت أثراً حسنًا »[٤] .

وكذلك لم يكن رأى قدامى الشعراء فى « عبيد » رأىَ ابن سلام الذى استكثر عليه الطبقة الرابعة . ففى أخبار الحطيئة : أن سعيد بن العاص ، جلس مع حُداثه وأصحاب سمرَه ، وهو والٍ على المدينة ، فخاضوا فى حديث العرب وأشعارها ، والحطيئة يسمع من مكانه بطرف المجلس ؛ فقال والقوم لا يعرفونه : ما أصبتم جيد الشعر ولا شاعر العرب . فسأله سعيد : فهل عندك من ذلك علم ؟ أجاب : نعم . قال : فمن أشعر الناس ؟ قال : الذى يقول :

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/١٤٢ . ط الحلبى .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٢١٩ .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ١/١٤٢ والعمدة لابن رشيق : ١/٦٠ .

(٤) رسالة الغفران ، تحقيق الدراسة : ص ٣٣٨ ط رابعة ، الذخائر .

لا أعُدُّ الإقتــارَ عدمًا ولكن فقدُ مَن قد رُزِئته الإعــدامُ

وأنشد القصيدة حتى أتى عليها ، وهى لأبى دؤاد الإيادى .

قال سعيد : ثم من ؟ قال الذى يقول .

أفلح بما شئت فقد يُدرِكُ بالضعف وقد يُخدَع الأريبُ

وأنشدها حتى أتى عليها [1] ، وهى لعبيد بن الأبرص الأسدى ، جعله الحطيئة — وهو مَن هو خبرة بالشعر ومعرفة بأقدار رجاله — أشعر الناس ، بعد أبى دؤاد الإيادى . ثم يأتى نقاد القرن الثالث فيؤخرونه إلى الطبقة الرابعة ، بل يستكثرونها عليه ! !

و « علقمة بن عبدة » أخروه إلى الطبقة الرابعة ، فاخرناه معهم ، وإنا لنقرأ قول « ابن سلام » فيه[2] :

« ولابن عبدة ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر ، الأولى :

« ذهبت من الهجران فى كلّ مذهبِ «

والثانية « طحا بكَ قلبٌ فى الحسان طروبُ «

والثالثة « هل ما علمتَ وما استُودِعتَ مكتومُ «

ولم يشفع له هذا التفوق ، حين أعوزته الكثرة ، وأعوزه المدح والهجاء . . .

فمن منا ، فكر فى دراسة هذه الثلاث الروائع الجياد التى لا يفوقهن شعر !

ووضع « ابن سلام » لبيدَ بن ربيعة ، فى الطبقة الثالثة من شعراء الجاهلية . وإنه ليعرف أن لبيداً « كان فى الجاهلية خير شاعر لقومه . يمدحهم ويرثيهم ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم »[3] .

ولكن ، ماذا يجدى عليه كل هذا ، وقد كان كريمًا على نفسه ، عفَّ الشعر ، لا يتجر به ولا يرتزق ؟

ماذا يجديه ، أن يكون خير شاعر لقومه ، إذا كان الطمع لا يحركه ، بل لقد بلغ من أنفته أن كرِه لابنته عثرةَ لسانٍ رآها جارحة لكرامتها وكرامته ؟

---

(١) ديوان مختارات شعراء العرب : ١٤٦ . والشعر والشعراء : ١/٣٢٥ معارف .

(٢) طبقات الشعراء : ٣١ . (٣) طبقات الشعراء : ٣٠ .

حدثوا أنه كان قد آلى على نفسه فى الجاهلية ألا تهب الصبا إلا أطعم الناس حتى تسكن . . . وظل على عهده بعد إسلامه ؛ فحدّث أن خطَب « الوليد ابن عقبة » الناسَ بالكوفة يومَ صبا، قال: «إن أخاكم لبيداً آلى ألا تهب الصبا إلا أطعم الناس حتى تسكن ، وهذا اليوم من أيامه ، فأعينوه ، وأنا أول من أعانه » .

« ونزل فبعث إليه بمائة بكرة ، مع أبيات من الشعر . وانفعل لبيد بهذا الصنيع ، أريد به أن يعان على مروءة ، فقال لابنته : أجيبيه ، فقد رأيتُنى وما أعيا بجواب شاعر .

فقالت تجيب الوليد[1] :

إذا هبَّت رياحُ أبى عقيلٍ ... دعونا عند هبَّتها الوليدا
أشمَّ الأنف أصيدَ عبشميّا ... أعان على مروءته لبيدا
أبا وهبٍ ، جزاك الله خيراً ... نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعُدْ إن الكريم له معاد ... وظنى يا ابنَ أروى أن تعودا

وعرضتها على أبيها ، فقال لها : أحسنت لولا أنك استطعمتِه »[2]

فما مبلغ عنايتنا اليوم بذلك الشاعر ؟

لما يزل حيث وضعه الذين لم يسيغوا أن يهلك المال على مروءته ، وقد رأوا الشعراء يبيعون مروءتهم بالمال .

ولم يهضموا أن يكون شاعر قومه ، لأن أمراء الشعر فى عصرهم ، هم شعراء الأمراء .

* * *

وماذا عن شعر الهذليين الذين قال فيهم « حسان بن ثابت » : « أشعر الناس حيا هذيل ؟ » شعر البلاط فى الحيرة وغسان ، أخمل شعر الهذليين عند قدامى النقاد ، فلم يظفر تراث (الحى الشاعر)بدارسٍ منهم ، يلتمس فيه ما يمكن

---

(١) أبو عقيل : كنية لبيد .

(٢) طبقات ابن سلام : ٢٩ . و (الشعر والشعراء لابن قتيبة : ١/٢٧٦ معارف) .

أن يهدينا إلى خصائص فنية وقيم أدبية ، فى تلك لظاهرة الشعرية اللافتة التى أفلتت من الضياع ؟

* * *

لو تحررنا من احتكام تلك المقاييس النقدية ؛ وصح فهمنا لتراثنا ، لكنا جديرين بأن نضع منه النماذج الحية الكريمة لمن كانوا فى المجتمع العربى سادة وقادة ، بين أيدى أبنائنا يغذى وجدانهم ، بدلاً من ذلك الصنف الذى راج فى سوق المذلة والتسول والنفاق .

ولعكفنا على تراث شعراء القبائل ، والصعاليك ؛ نلتمس منه ما يجلو الذاتية الجماعية ، ويريحنا من الخصومة النقدية الحادة ، التى مللنا سماعها بين ما يسمونه « الفن للفن » أو « الفن للمجتمع » كأنما كانت فنية الفن تمنع جماعيته ، وجماعيته تهدر ذاتيته ! ! .

ولاتّسع الأفق أمامنا رحبًا طليقًا ، لجديد من الدراسات ، غير تلك التى ملها الزمن لطول ما سمع عن الأعشى صناجة العرب ، والنابغة أمير الشعراء إذا رهب . . .